ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ(١) وَٱلسَّلۡوَىٰ(٢) ﴿٨٠﴾ ﴾

لله عز وجل على بني إسرائيل مِنَنٌ كثيرة ونعَم لا تُعدُّ ، كان مقتضى العبادية التي وصفهم بها ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [طه] أن يُنفِّذوا منهج ربهم ، ويذكروا نعمه ذكْراً لا يغيب عن بالهم أبداً ، بحيث كلما تحركتْ نفوسهم إلى مخالفة ذكروا نعمةً من نعَم الله عليهم ، تذكّروا أنهم غير متطوعين بالإيمان ، إنما يردُّون لله ما عليهم من نعَم وآلاء .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ هنا يُذكّرهم ببعض نعَمه ، ويناديهم بأحبِّ نداء ﴿ يَٰبَنِي إِسْرَائِيلَ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [طه] وإسرائيل يعني عبد الله ، عبده المخلص ، كما تقول لصاحبك : يا ابن الرجل الطيب .. الورع ، فالحق يُذكّرهم بأصلهم الطيب ، وينسبهم إلى نبي من أنبيائه ، كأنه يلفت أنظارهم أنه لا يليق بكم المخالفة ، ولا الخروج عن المنهج ، وأنتم سلالة هذا الرجل الصالح .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [طه] أي : من

---

(١) المنُّ : طَلٌّ ينزل من السماء يشبه العسل كان ينزل على بني إسرائيل عفواً بلا علاج ، فيصبحون وهو بأفنيتهم فيتناولونه . [ لسان العرب ـ مادة : منن ] .

(٢) السلوى : طائر أبيض مثل السُّماني . [ لسان العرب ـ مادة : سلا ] . قال في القاموس القويم للقرآن الكريم ( ١/٣٢٦ ) . « هو السماني ، وهو طائر صغير من رتبة الدجاج وجسمه ممتلىء وهو من الطيور المهاجرة من أوربا في الشتاء إلى البلاد الدافئة ، ويعود ما سلم منه في أوائل الصيف إلى موطنه في أوربا وهو طعام جيد ولحمه كالحمام أو هو أشهى ، وأهل العريش بشمال سيناء مشهورون بصيده » .

فرعون الذى استذلكم ، وذبح أبناءكم ، واستحى[1] نساءكم ويُسخِّرهم في الأعمال دون أجر ، وفعل بكم الأفاعيل ، ثم ﴿وواعدناكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأيمن .. (٨٠)﴾ [طه] لتأخذوا المنهج السليم لحركة الحياة . إذن : خلَّصْناكم من أذى ، وواعدناكم لنعمة .

﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ .. (٨٠)﴾ [طه] واعد : مفاعلة لا تكون إلا من طرفيْن مثل : شارك وخاصم ، فهل كان الوَعْد من جانبهما معاً : الله عز وجل وبنى إسرائيل ؟ الوَعْد كان من الله تعالى ، لكن لم يقُلْ القرآن : وعدناكم . بل أشرك بنى إسرائيل فى الوعد ، وهذا يُنبِّهنا إلى أنه إذا وعدك إنسان بشىء ووافقتَ ، فكأنك دخلتَ فى الوعد .

وجانب الطور الأيمن : مكان تلقِّى منهج السماء . وهو مكان بعيد فى الصحراء ، لا زرعَ فيه ولا ماء ؛ لذلك يضمن لهم ربُّهم عز وجل ما يُقيتهم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠)﴾ [طه]

المنّ : سائل أبيض يشبه العسل ، يتساقط مثل قطرات بلورية تشبه الندى على ورق الأشجار ، وفى الصباح يجمعونه كطعام حلو . وهذه النعمة ما زالت موجودةً فى العراق مثلاً ، وتقوم عليها صناعة كبيرة هى صناعة المنّ .

والسَّلْوى : طائر يشبه طائر السِّمان .

وهكذا وفَّر لهم الحق - تبارك وتعالى - مُقوِّمات الحياة بهذه المادة السُّكَّرية لذيذة الطعم تجمع بين القشدة مع عسل النحل ، وطائر شهى دون تعب منهم ، ودون مجهود ، بل يرونَه بين أيديهم مُعَدّاً جاهزاً ، وكان المنتظر منهم أن يشكروا نعمة الله عليهم ، لكنهم اعترضوا عليها فقالوا :

---

(١) استحيا النساء : استبقاهن ولم يقتلهن . [ لسان العرب - مادة : حيا ]

﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا[1] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ.. (٦١)﴾ [البقرة]

وفى سورة البقرة ذكر مع هذه النعمة التى صاحبتهم فى جَدْب الصحراء نعمة أخرى ، فقال تعالى : ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ .. (٥٧)﴾ [البقرة] أى : حَمَيْناكم من وهج الشمس وحرارتها حين تسيرون فى هذه الصحراء .

ونلحظ اختلاف السياق هنا ( نَزَّلْنَا ) ، وفى البقرة قال : ( أَنْزَلْنَا ) ؛ ذلك لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعالج الموضوع فى لقطات مختلفة من جميع زواياه ، فقوله ( أَنْزَلْنَا ) تدل على التعدِّى الأول للفعل ، وقد يأتى لمرة واحدة ، إنما ( نَزَّلْنَا ) فتدلُّ على التوالى فى الإنزال .

وأهل الريف فى بلادنا يُطلقون المنَّ على مادة تميل إلى الحمرة الداكنة ، ثم تتحول إلى السواد ، تسقط على النبات ، لكنها ليست نعمةً ، بل تُعَدُّ آفة من الآفات الضارة بالنبات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١)﴾

---

(١) البقل : نبات عشبىٌّ يؤكل أو تؤكل بذوره ، أو : هو كل ما اخضرت به الأرض . [ القاموس القويم ١/٧٨ ] .

والقثاء : الخيار ، والمعروف أنه أكبر من الخيار وأطول ومختلف عنه ، وهما من فصيلة واحدة . [ القاموس القويم ٢/١٠١ ] .

والفوم : هو الثوم ، وهو من مشهيات الطعام ، وفيه أقوال أخرى . [القاموس القويم٢/٩٢] .

الطعام والشراب والهواء مُقوِّمات الحياة التى ضمنها الله عز وجل لنا ، والأمر بالأكل هنا للإباحة ، وليس فَرْضاً عليك أنْ تأكل إلا إذا أردتَ الإضراب عن الطعام إضراباً يضرُّ بحياتك فعندها تُجبر عليه .

وقوله : ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٨١)﴾ [طه] خصَّ الطيبات ؛ لأن الرزق : منه الطيب ، ومنه غير الطيِّب ، فالرزق : كُلّ ما انتفعتَ به ولو كان حراماً . بمعنى أن ما نلْتَه من الحرام هو أيضاً من رزقك إلا أنك تعجَّلته بالحرام ، ولو صَبرْتَ عليه وعففْتَ نفسك عنه لَنِلْتَ أضعافه فى الحلال .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلا تَطْغَوْا فِيهِ .. (٨١)﴾ [طه] وفى آية البقرة ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل] فكأن ظلمَ النفس علَّته أنهم طَغَوْا فى الأكل من الرزق .

والطغيان : من طغى الشىء إذا زاد عن حَدِّه المألوف الذى ينتفع به ، ومنه طغيان الماء إذا زاد عن الحدِّ الذى يزيل الشَّرق والعطش إلى حَدٍّ أنه يُغرق ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)﴾ [الحاقة] أى : تجاوز الحد الذى ينتفع به إلى العَطَب والهلاك .

وهكذا فى أى حَدٍّ ، لكن كيف تتأتى مجاوزة الحد فى الطعام والأقوات ؟

الحق - تبارك وتعالى - لما خلق الأرض قدَّر فيها أقواتها إلى يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت]

فاطمئنوا إلى هذه المسألة ، وإذا رأيتم الأرض لا تعطى فلا تتهموها ، إنما اتهموا أنفسكم بالتقصير والتكاسل عن عمارة

الأرض وزراعتها ، كما أمركم الله : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١)﴾ [هود]

وقد غفلنا زمناً عن هذه المسألة ، حتى فاجأتنا الأحداث بكثرة العدد وقلّة المدد ، فكان الخروج إلى الصحراء وتعميرها .

وما دام أن الخالق - عز وجل - خلق لنا أرزاقنا ومُقوِّمات حياتنا ، وجعلها مناسبة لهذا الإنسان الذى كرّمه وجعله خليفة له فى الأرض ، وجعل لهذا الرزق ولهذه المقوّمات حدوداً حدَّها وبيَّنها هى ( الحلال ) ، فلا ينبغى لك بعد ذلك أن تتعدى هذه الحدود ، وتطغى فى تناول طعامك وشرابك .

ونحن نرى حتى الآلات التى صنعها البشر ، لكل منها وقودها الخاص ، وإذا أعطيتها غيره لا تؤدى مهمتها ، فمثلاً لو وضعت للطائرة سولاراً لا تتحرك ، فليس هو الوقود المناسب لطبيعتها .

إذن : حدودك فى مُقوِّمات حياتك الحلال ، ولو استقرأنا ما أحلَّ الله وما حرَّم لوجدنا الأصل فى الأشياء أنها حلال ، والكثير هو المحلل لك ، أما المحرم عليك، فهو القليل المحصور الذى يمكن تحديده .

لذلك يقول عز وجل : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] ولم يقُلْ مثلاً فى آية أخرى : تعالوا أتْلُ ما أحل الله لكم ؛ لأنها مسألة تطول ولا تحصى .

إذن : ساعةَ أعطاك ربك قال لك : هذا رزْقُك الحلال الخالص ، ومنه وقودك ومُقوِّمات حياتك ، وبه بقاؤك ونَشاط حركتك . فلا تتعدَّ الحلال على كثرته إلى الحرام على قلّته وانحصاره فى عدَّة أنواع ، بيَّنها لك وحذَّرك منها .

وبالغذاء تتم فى الجسم عملية ( الأيْض ) يعنى : الهدم والبناء ، وهى عملية مستمرة فى كل لحظة من لحظاتك ، فإياك أنْ تبنى ذرَّة

من ذراتك من الحرام ؛ لأن ذرة الحرام هذه تظل تُشاغبك وتُلح عليك كي تُوقعك في أصلها .

وقد قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ (١٧٢) ﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، ثم يمد يديه إلى السماء : يا رب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّي بالحرام ، فأنَّى يُستجاب لذلك »[1] .

ذلك لأن ذرات بنائه غير منسجمة ، لأنها نَمتْ على وقود ما أحله الله له .

لذلك تسمع من بعض المتمحكين : ما دام أن الله خلق الخنزير فلماذا حرَّمه ؟ نقول : لقد فهمتَ أن كل مخلوق خُلق ليؤكل ، وهذا غير صحيح ، فالله خلق البترول الذى تعمل به الآلات ، أتستطيع أن تشربه كالسيارة ؟

إذن : فَرْق بين شيء مخلوق لشيء ، وأنت توجهه لشيء آخر ، هذه تسمى إحالة أى : تحويل الشيء إلى غير ما جُعل له ، وهذا هو الطغيان فى القُوت ؛ لأنك نقلتَ الحرام إلى الحلال .

وقد يأتى الطغيان فى صورة أخرى ، كأن تأكل ما أحلَّ الله من الطيبات ، لكنك تحصل عليها بطريق غير مشروع ، وتُعوِّد نفسك الكسل عن الكسْب الحلال ، فتأخذ مجهود غيرك وتعيش عالةً عليه ، فإلى جانب

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٢٨) ، ومسلم فى صحيحه (١٠١٥) كتاب الزكاة ، والترمذى فى سننه (٢٩٨٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أنك تتغذَّى على الحرام فأنت أيضاً تُزهِّد غيرك فى الحركة والإنتاج والملك ، وما فائدة أن يتعب الإنسان ويأخذ غيره ثمرة تعبه ؟

وقد أخذ الطغيان بهذا المعنى صُوراً متعددة فى مجتمعاتنا ، فيمكن أن ندرج تحته : الغصب ، والخطف ، والسرقة ، والاختلاس ، والرشوة ، وخيانة الأمانة ، وخداع مَن استأجرك إلى غير ذلك من أَخْذ أموال الناس بالباطل ودون وَجْه حق ، وكل عمل من هذه التعديات له صورته .

فالخطف : أنْ تخطف مال غيرك دون أنْ يكون فى متناول يد المخطوف منه ثم تَفر به ، فإنْ كان فى متناول يده وأنت غالبته عليه، وأخذته عَنْوةً فهو غَصْب مأخوذ من : غَصْب الجلد عن الشاة أى : سلخه عنها . فإنْ كان أخذ المال خُفْيةً وهو فى حرْزه فهى سرقة . وإن كنت مُؤتمناً على مال بين يديك فأخذتَ منه خفيةً فهو اختلاس .. الخ .

إذن : أحل الله لك أشياءَ ، وحرَّم عليك أخرى ، فإنْ كان الشىء فى ذاته حلالاً فلا تأخذه إلا بحقِّه حتى يحترم كل منَّا عمل الآخر وحركته فى الحياة وملكيته للأشياء ، وبذلك تستقيم بنَا حركة الحياة ، ويسعد الجميع ، ونعين المنفق ، ونأخذ على يد المتسيِّب البلطجى .

وللإسلام منهج قويم فى القضاء على مسألة البطالة ، تأخذ به بعض النظم الحديثة الآن ، وهو أن الشرع يأمر للقضاء على البطالة أن تحفر بئراً وتطمَّها : أى احفرها وارْدمها ثم اعْط الأجير فيها أجره . كيف هذا ؟ تحفر البئر ولا تستفيد منها وتردمها فما الفائدة ؟ ولماذا لم نعط الأجير أجره دون حفر ودون ردم ؟

قالوا : حتى لا يتعوَّد على الخمول والكسل ، وحتى لا يأكل إلاَّ من عرقه وكَدِّه ، وإلا فسد المجتمع .

وللطغيان فى القوت صورة أخرى ، هى أن تستخدم القوت الذى جعله الله طاقةً لك فى حركة الحياة النافعة ، فإذا بك تصرف هذه الطاقة التى أنعم الله بها عليك فى معصيته .

وهكذا ، كان الطغيان هو علّة ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ .. (١١٨) ﴾ [النحل] أى : بالعقوبة ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل] أى : بالطغيان .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي .. (٨١) ﴾ [طه] الفعل : حَلَّ ، يحلّ يأتى بمعنى : صار حلالاً ، كما تقول للسارق : حلال فيه السجن . وتأتى حلَّ يحل بمعنى : نزل فى المكان ، تقول : حلَّ بالمكان أى : نزل به . فيكون المعنى : ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي .. (٨١) ﴾ [طه] أى : صار حلالاً ، ووجب لكم ، أو بمعنى : ينزل بكم . وقد يكون المعنى أعمَّ من هذا كله .

والغضب انفعال نفسىٌّ يُحدث تغييراً فى كيماوية الجسم ، فترى الغاضب قد انتفختْ أوداجه واحمرَّ وجهه ، وتغيّرت ملامحه ، فهذه أغيار تصاحب هذا الانفعال . فهل غضب الله عز وجل من هذا النوع ؟

بالطبع لا ؛ لأنه تعالى ليس عنده أغيار ، وإذا كان الغضب يتناسب وقدرة الغاضب على العذاب ، فما بالك إنْ كان الغضب من الله ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) ﴾ [طه] مادة : هَوَى لها استعمالان ، الأول : هَوَى يهْوِى : يعنى سقط من أعْلى سقوطاً لا إرادةَ له فى منعه ، كأن يسقطَ فجاة من على السطح مثلاً ، ومن ذلك قوله :

* هُوِىَ الدلو أسْلَمَها الرِّشَاء[1] *

إذا انقطع الحبل الذى يُخرِج الدَّلْو .

والآخر : هَوِىَ يهْوَى : أى أحبَّ .

فيكون المعنى ﴿فَقَدْ هَوَىٰ ۝٨١﴾ [طه] سقط إلى القاع سقوطاً لا يبقى له قيمة فى الحياة ، أو هَوَى فى الدنيا ، ويَهوى فى الآخرة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة] فأمه ومصدر الحنان له هاوية ، فكيف به إذا هوى فى الهاوية ؟

هذه كلها عظَات ومواعظ للمؤمن ، يُبيِّنها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ له ـ كى يبنىَ حركة حياته على ضَوْئها وهُدَاها .

ولما كان الإنسان عُرْضة للأغيار لا يثبتُ على حال يتقلَّب بين عافية ومرض ، بين غنىً وفقرٍ ، فكُلُّ ما فيه موهوب له لا ذاتىّ فيه ، لذلك إياك أن تحزن حين يفوتك شىء من النعمة ؛ لأنها لن تبقى ولن تدوم ، وهَبْ أنك بلغتَ قمة النعيم ، فماذا تنتظر إلا أنْ تزول ، كما قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شَىْءٌ بَدَا نَقْصُه ... تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمّ

فإذا تَمَّ لك الشىء ، وأنت ابْنُ أغيار ، ولا يدوم لك حال فلا بُدَّ لك أنْ تنحدر إلى الناحية الأخرى .

فكأن نقْصَ الإنسان فى آماله فى الحياة هى تميمة حراسة

---

(١) الرِّشاء : الحبل . وأرشى الدلو : جعل لها رشاء أى حبلاً . [ لسان العرب ـ مادة : رشا ] . وقد ذكر ابن منظور هذا الشطر فى [ لسان العرب ـ مادة : هوى ] قال : « قال ابن برى : ذكر الرياشى عن أبى زيد أن الهُوِى بفتح الهاء إلى أسفل ، وبضمها إلى فوق» .

النِّعَم ، وما فيه من نَقْص أو عيب يدفع عنه حَسَد الحاسد ، كما قال الشاعر فى المدح :

شَخَصَ الأنَامُ إلى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ مِنْ شَرِّ أعينهِمْ بِعَيْبٍ وَاحِدِ

أى : أن الأعين متطلعة إليك ، فاصرفها عنك ، ولو بعيب واحد يذكره الناس وينشغلون به .

وفى الريف يعيش بعض الفلاحين على الفطرة ، فإنْ رُزِق أحدهم بولد جميل وسيم يَلْفت نظر الناس إليه . تراهم يتعمدون إهمال شكله ونظافته ، أو يضعون له ( فاسوخة ) دَفْعاً للحسد وللعين .

لذلك ، فالمرأة التى دخلت على الخليفة ، فقالت له : أتمَّ الله عليك نعمته ، وأقرَّ عينك ، ففهم الحضور أنها تدعو له ، فلما خرجتْ قال الخليفة : أعرفتم ما قالت المرأة ؟ قالوا : تدعو لك ، قال : بل تدعو علىَّ ، فقد أرادت بقولها : أتمَّ الله عليك نعمته تريد أزالها ؛ لأن النعمة إذا تمت لم يَبْقَ لها إلا الزوال ، وقولها : أقَرَّ الله عينكَ تريد : أسكنها عن الحركة .

إذن : لا تغضَب إنْ قالوا عنك : ناقص فى كذا ، فهذا النقص هو تميمة الكمال ، ويريدها الله لك لمصلحتك أنت .

وما دام الإنسان ابن أغيار ، فلا بُدَّ أنْ يغفل عن منهج الله ، فتكو له سَقَطات وهَفَوات تحتاج إلى غفران ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

غفار : صيغة مبالغة من غفر ، فإذا أثبت المبالغة فالترتيب اللغوى بالتالى يُثبِت الأقلَّ وهو غافر ، هذا فى الإثبات . وكذلك فى النفى فى

مثل قوله تعالى : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت] فنفى المبالغة فى الظلم ، فهل يعنى ذلك أنه - تبارك وتعالى - يمكن أن يكون ظالماً ؟

والشىء يُبالغ فيه لأمرين : الأول : أن تبالغ فى نفس الحدث ، كأن تأكلَ رغيفاً فى الوجبة أو رغيفين ، وآخر يأكل خمسة أرغفة ، فهذه منه مبالغة فى نفس الحدث وهو الأكل ، والثانى : قد تكون المبالغة بتكرار الحدَث ، فالعادة أن نأكل ثلاث مرات ، وهناك مَنْ يأكل ستَّ وجبات ، ونسميه ( أكول ) أى : كثير الأكل ، لا فى الوجبة الواحدة ، إنما فى عدد الوجبات .

فمعنى ( غَفَّارٌ ) غافر لى ، وغافر لك ، وغافر لهذا وهذا .. غافر لكل الخَلْق ، فتكررت مغفرته عز وجل لخَلْقه .

وقد شرع الحق - سبحانه وتعالى - المغفرة والتوبة ليحمى المجتمعات من شرار الناس فيها ، فالشرير إذا ارتكب جريمة ولم يجد له فرصة للمغفرة والتوبة ، فإنه يستمرىء الجريمة ، بل ويبالغ فيها .

أما إذا فُتِح له باب التوبة والمغفرة فإن هذا يرحم المجتمع من شراسة أصحاب السوء .

والله - عز وجل - ليس غافراً للذنوب فحسب ، بل هو غفار لها ، وكلما عدت إليه غفر لك ، ولكن وَطِّن نفسك أنك إذا فعلت الذنب وتُبْت منه فلا تعد إليه ، ولا ترتب وتخطط لمعصيتك على أمل أن تتوب ، فما يدريك أن تعيش إلى أن تتوب ؟

والمغفرة تكون ﴿لِّمَن تَابَ وَآمَنَ .. ﴿٨٢﴾﴾ [طه] وما دام قال ﴿تَابَ وَآمَنَ .. ﴿٨٢﴾﴾ [طه] فلابُدَّ أن التوبة هنا عن الكُفْر ، ثم أنشأ

إيماناً بالله وبرسوله . والإيمان هو الينبوع الذى يصدر عنه السُّلوك البشرى ، وهذا يقتضى أن تسمع كلامه وتُنفِّذ أوامره ، وتجتنب نواهيه ، وهذا هو المراد بقوله ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا .. (٨٢) ﴾ [طه]

لكن ، أليس العمل الصالح هداية ؟ فلماذا قال بعدها ﴿ ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢) ﴾ [طه] قالوا[1] : لأن الهداية أنْ تستمر على هذا العمل الصالح ، وأنْ تستزيدَ منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى .. (١٧) ﴾ [محمد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ (٨٣) ﴾[2]

نقول : ما أعجلك ؟ يعنى : ما أسرع بك ؟ لماذا جئتَ قبل موعدك ؟ وكان موسى عليه السلام على موعد مع ربه - عز وجل - ليتلقى عنه المنهج ، والمفروض فى هذا اللقاء أنْ يأتىَ معه مجموعة

---

(١) قاله سفيان الثورى وقتادة وغيرهما . وقد ذكره القرطبى فى تفسيره ( ٦/٤٤٠٤ ) وذكر بعده سبعة أقوال أخرى :
- أى : لم يشك فى إيمانه . قاله ابن عباس ، وذكره الماوردى والمهدوى .
- أقام على السنة والجماعة . قاله ابن عباس أيضاً ، وذكره الثعلبى .
- أخذ بسنة النبى ﷺ ، قاله أنس ، وذكره المهدوى .
- أصاب العمل . قاله ابن زيد ، ذكره المهدوى .
- تعلم العلم ليهتدى كيف يفعل . قاله ابن زيد .
- علم أن لذلك ثواباً وعليه عقاباً . قاله الشعبى ومقاتل والكلبى والفراء .
- اهتدى فى ولاية أهل بيت النبى ﷺ . قاله ثابت البنانى .

ثم قال القرطبى « والقول الأول أحسن هذه الأقوال - إن شاء الله - وإليه يرجع سائرها » .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره ( ٦ / ٤٤٠٦ ) : « قال قوم : أراد بالقوم السبعين الذين اختارهم ، وكان موسى لما قرب من الطور سبقهم شوقاً إلى سماع كلام الله ، وقد قال تعالى : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا .. (١٥٥) ﴾ [الأعراف] .

من صَفْوة قومه ورؤسائهم ، فتعجل موسى موعد ربه ، وذهب دون قومه ، فقال له : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ [طه] أى : أسرعتَ وتعجَّلْتَ وجئتَ بدونهم .

فقال موسى عليه السلام :

﴿قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾

أى : قادمين خلفي وسيتبعونني ، أما أنا فقد ﴿عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه] تعجَّلْتُ فى المثول بين يديك لترضى .

وقد تعجَّل موسى إلى ميقات ربه ، وسبق قومه لحكمة ، فالإنسان حين يأمر غيره بأمر فيه مشقَّة على النفس وتقييد لشهواتها ، لا بُدَّ أن يبدأ بنفسه يقول : أنا لست بنجْوَة عن هذا الأمر ، بل أنا أول مَنْ أُنفِّذ ما آمركم به ، وسوف أسبقكم إليهِ .

لذلك يقول القائد الفاتح طارق بن زياد[1] لجنوده : « واعلموا أنى إذا التقى الفريقان مُقبل بنفسى على طاغية القوم - لزريق - فقاتله إن شاء الله ، فإن قتلته فقد كُفِيتم أمره » وهكذا تكون القيادة قدوة ومثَلاً كما يقولون فى الأمثال ( اعمل كذا وإيدى فى إيدك ) وهنا يقول : يدى قبل يدك .

فموسى عليه السلام يقول : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه] ترضى أن منهجك يُطبَّق من جهتى كرسول مؤتمن عليه ، ومن جهة قومى ؛ لأنهم حين يرونى قد تعجلت للقائك فى الموعد يعلمون

(١) هو : طارق بن زياد الليثى بالولاء ، فاتح الأندلس ، أصله من البربر ، أسلم على يد موسى بن نصير ، فكان من أشد رجاله ولد نحو ٥٠ هـ ، تغلغل فى أرض الأندلس ، وتوفى عام ١٠٢ هـ . [ الأعلام - للزركلى - ٢١٧/٣ ] .

أن فى ذلك خيراً لهم ، وإلا ما سبقتهم إليه . وبذلك يسود منهج الله ويُمكَّن فى الأرض ، وإذا ساد منهج الله رضى الله عن خليفته فى الأرض .

ثم يُخبر الحق - تبارك وتعالى - نبيه موسى - عليه السلام - بما كان من قومه بعد مفارقته لهم من مسألة عبادة العجل .

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾

الفتنة : ليست مذمومة فى ذاتها ؛ لأن الفتنة تعنى الاختبار ، ونتيجته هى التى تُحمَد أو تُذمّ ، كما لو دخل التلميذ الامتحان فإنْ وُفِّق فهذا خير له ، وإنْ أخفق فهذا خير للناس ، كيف ؟

قالوا : لأن هناك أشياءَ إنْ تحققتْ مصلحة الفرد فيها انهدمتْ مصلحة الجماعة . فلو تمكَّن التلميذ المهمل الكسُول من النجاح دون مذاكرة ودون مجهود ، فقد نال انتفاعاً شخصياً ، وإنْ كان انتفاعاً أحمق ، إلا أنه سيعطى الآخرين إشارة ، ويُوحِى لهم بعدم المسئولية ، ويفرز فى المجتمع الإحباط والخمول ، وكفى بهذا خسارة للمجتمع .

وقد جاءتْ الفتنة بهذا المعنى فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت]

إذن : لابد من الاختبار لكى يعطى كل إنسان حسب نتيجته ، فإن سأل سائل : وهل يختبر الله عباده ليعلَم حالهم ؟ نقول : بل ليعلم

الناس حالهم ، وتتكشف حقائقهم فيعاملونهم على أساسها : هذا منافق ، وهذا مخلص ، وهذا كذاب ، فيمكنك أنْ تحتاط في معاملتهم .

إذن : الاختبار لا ليعلم الله ، ولكن ليعلم خَلْق الله .

أو : لأن الاختبار من الله لقطْع الحجة على المختبر ، كأن يقول : لو أعطاني الله مالاً فسأفعل به كذا وكذا من وجوه الخير ، فإذا ما وُضِع في الاختبار الحقيقي وأُعْطِي المال أمسك وبَخِل ، ولو تركه الله دون مال لَقال : لو عندي كنتُ فعلت كذا وكذا .

فهناك علْم واقع من الله ، أو علم من خَلْق الله لكل مَنْ يفتن ، فإنْ كان مُحْسناً يقتدون به ، ويقبلون عليه ، ويحبونه ويستمعون إليه ، وإلاَّ انصرفوا عنه . فالاختبار - إذن - قَصْده المجتمع وسلامته .

وقد سَمَّى الحق سبحانه ما حدث من بني إسرائيل في غياب موسى من عبادة العجل سماه فتنة ، ثم نسبها إلى نفسه ﴿ فَتَنَّا .. (٨٥) ﴾ [طه] أي : اختبرنا .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) ﴾ [طه] أضلهم : سلك بهم غير طريق الحق ، وسلوك غير طريق الحق قد يكون للذاتية المحضة ، فيحمل الإنسان فيها وِزْر نفسه فقط ، وقد تتعدَّى إلى الآخرين فيسلك بهم طريق الضلال ، فيحمل وزره ووِزْر غيره ممَّنْ أضلّهم .

وفي هذه المسألة يقول تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم .. (٢٥) ﴾ [النحل]

مع أن الله تعالى قال في آية أخرى : ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. (١٨) ﴾ [فاطر]

وهذه من المسائل التى توقَّف عندها بعض المستشرقين ، محاولين اتهام القرآن وأسلوبه بالتناقض ، وما ذلك منهم إلا لعدم فَهْمهم للغة القرآن واتخاذها صناعة لا ملَكَة ، ولو فَهموا القرآن لَعلموا الفرق بين أن يضل الإنسان فى ذاته ، وبين أن يتسبب فى إضلال غيره .

والسامرى[1] : اسمه موسى السامرى ، ويُرْوَى أن أمه وضعته فى صحراء لا حياة فيها ، ثم ماتت فى نفاسها ، فظل الولد بدون أم ترعاه ، فكان جبريل عليه السلام يتعهده ويربِّيه إلى أن شبَّ[2] .

وقد عبَّر الشاعر عن هذه اللقطة وما فيها من مفارقات بين موسى عليه السلام وموسى السامرى ، فقال :

إِذَا لَمْ تُصَادِفْ فى بَنِيكَ عِنَايَةٌ ... فَقَدْ كَذَبَ الرَّاجِى وَخَابَ المؤمِّلُ

فَمُوسَى الذِى رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كَافِر ... وَمُوسَى الذِى رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾

(١) قال ابن عباس : كان السامرى من قوم يعبدون البقر ، فوقع بأرض مصر فدخل فى دين بنى إسرائيل بظاهره ، وفى قلبه ما فيه من عبادة البقر : وقيل : كان رجلاً من القبط ، وكان جاراً لموسى آمن به وخرج معه . وقيل : كان عظيماً من عظماء بنى إسرائيل ، من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام . [ تفسير القرطبى ٦/٤٤٠٧ ] .

(٢) قال ابن عباس فى قوله تعالى عن السامرى : ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ .. (٩٦)﴾ [طه] : « عرف السامرى جبريل ، لأن أمه حين خافت أن يذبح خلفته فى غار وأطبقت عليه ، فكان جبريل يأتيه فيغذوه بأصابعه ، فى واحدة لبناً ، وفى الأخرى عسلاً ، وفى الأخرى سمناً ، فلم يزل يغذوه حتى نشأ ، فلما عاينه فى البحر عرفه » .

رَجَع : تُستعمل لازمة . مثل : رجع فلانٌ إلى الحق . ومُتعدِّية مثل ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ .. (٨٣) ﴾ [التوبة] والمعنى فيهما مختلف .

هنا رجع موسى أي : حين سمع ما حدث لقومه من فتنة السامري ﴿ غَضْبَانَ أَسِفًا .. (٨٦) ﴾ [طه] أي : شديد الحزن على ما حدث ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا .. (٨٦) ﴾ [طه] الوعْد الحسن أن الله يعطيهم التوراة ، وفيها أصول حركة الحياة ، وبها تَحسُن حياتنا في الدنيا ، ويحسُن ثوابنا في الآخرة .

وقوله : ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ .. (٨٦) ﴾ [طه]

يعني : أطال عهدي بكم ، وأصبح بعيداً لدرجة أنْ تنسوْه ، ولم أغبْ عنكم إلا مُدَّة يسيرة . قال الله عنها : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ .. (١٤٢) ﴾ [الأعراف]

ثم يقول : ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) ﴾ [طه]

وما دام أن عهدي بكم قريب لا يحدث فيه النسيان ، فلا بُدَّ أنكم تريدون العصيان ، وتبغُون غضب الله ، وإلاّ فالمسألة لا تستحق ، فبمجرد أنْ أغيبَ عنكم تنتكسون هذه النكسة ، وإن كان هذا حال القوم ورسولُهم ما زال بين أظهرهم ، فما بالهم بعد موته ؟

لذلك كان النبي ﷺ يقول : « أذلك وأنا بين ظَهْرانيكم ؟ »[1] .

أي : ما هذا الذي يحدث منكم ، وأنا ما زلت موجوداً بينكم ؟

---

(١) أخرج النسائي في سننه (١٤٢/٦) كتاب الطلاق من حديث محمود بن لبيد قال : أُخْبِر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضباناً ، ثم قال : أيُلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم حتى قام رجل وقال : يا رسول الله ، ألا أقتله .

وقوله : ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى (٨٦) ﴾ [طه] وفى آية أخرى قال : ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى .. (١٥٠) ﴾ [الأعراف] فكأنه كان له معهم وَعْد وكلام ، فقد أوصاهم قبل أن يُفارقهم أنْ يسلكوا طريق هارون ، وأن يطيعوا أوامره إلى أنْ يعود إليهم ، فهارون هو الذى سيخلفه من بعده فى قومه ، وهو شريكه فى الرسالة ، وله مهابة الرسول وطاعته واجبة .

هذا هو الوَعْد الذى أخلفوه مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ.

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) ﴾

مادة « ملك » لها صور ثلاثة ، لكل منها معنى ، وليست بمعنى واحد كما يدَّعى البعض ، فتأتى مَلْك بفتح الميم ، ومِلْك بكسرها ، ومُلْك بضم الميم ، وجميعها تفيد الحيازة والتملُّك ، إلا أن مَلْك تعنى تملك الإنسان لنفسه وذاته وإرادته ، دون أنْ يملكَ شيئاً آخر ممَّا حوله .

ومِلْك : لتملك ما هو خارج عن ذاتك .

ومُلْك : أنْ تملك شيئاً ، وتملك مَنْ ملكه .

إذن : هذه الثلاثة ليستْ مترادفات بمعنى واحد . فقوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا .. (٨٧) ﴾ [طه] أى : بإرادتنا ، بل أمور أخرى خارجة عن إرادتنا حملتنا على إخلاف الوعد ، فما هذه الأمور الخارجة عن إرادتكم ؟

قالوا : ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ .. (٨٧) ﴾ [طه] (أَوْزَاراً ) جمع وِزْر ، وهو الشىء الثقيل على النفس ، ويطلق الوِزْر على الإثم ؛ لأنه ثقيل على النفس ثِقَلاً يتعدىَ إلى الآخرة أيضاً ،

حيث لا ينتهى ألم الحمل فيها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (١٠١)﴾ [طه]

وكانت هذه الأوزار من زينة القوم : أى : قوم فرعون . وقالوا : إنهم كانوا فى أعيادهم يستعيرون الحُلىّ من جيرانهم ومعارفهم من قوم فرعون يتزيَّنون بها . فلماذا لم يردُّوا الأمانات هذه إلى أصحابها قبل أنْ يخرجُوا إلى الميقات الذى واعدهم عليه ؟

قالوا : لأنهم أرادوا أنْ يُسِرُّوا ساعة خروجهم حتى لا يستعد لهم أعداؤهم ، ويصدُّوهم عن الخروج فأعجلوا عن رَدِّها .

وقال قوم : إن هذه الزينات والحلىّ كانت مما قذف به البحر بعد أنْ غرق فرعون وقومه ، لكن هذا القول مردود ؛ لأنهم إنْ أخذوها بعد أنْ ألْقَى بها البحر فسوف تكون أسلاباً لا أوزاراً .

ثم يقول تعالى : ﴿فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧)﴾ [طه]

إذا أُطلقَتْ الزينة تنصرف عادةً إلى الذهب . والقَذْف هو الرَّمْى بشدة ، وكأن الرامى يتأفّف أنْ يحمل المرمىّ ، وفى ذلك دلالة على أن بنى إسرائيل ما يزال عندهم خميرة إيمان ، فتألموا وحزنوا لأنهم لم يردُّوا الأمانات إلى أهلها .

لذلك دخل عليهم السامرى من هذه الناحية ، فأفهمهم : إنكم لن تبرأوا من هذه المعصية إلا أنْ ترمُوا بهذه الزينة فى النار(١) ، وهو يقصد شيئاً آخر ، هو أنْ ينصهر الذهب ، ويُخرِج ما فيه من الشوائب ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى

(١) أورد القرطبى فى تفسيره ( ٤٤٠٨/٦ ) نحو هذا من قول قتادة : إن السامرى قال لهم حين استبطأ القوم موسى : إنما احتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلى ، فجمعوه ودفعوه إلى السامرى فرمى به فى النار ، وصاغ لهم منه عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس الرسول وهو جبريل عليه السلام .